عصـــر الظاهر بيبرس، إلى خضوع المنطقة كلها للعثمانيين، ثم حملة اللنبى، ثم إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، لو أنهم كانوا يعرفون هـــذا جـــيداً لكانت نظرتهم إلى المشكلة قد اختلفت كثيراً ولكانوا أدركوا من بالضبط يحاربون عندما يحاربون إسرائيل وما جدوى مـــثل هذه الحرب ولعرفوا لماذا حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانـــية، لماذا حدث أن كان تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية هـــو الشـــىء الوحيد الذى اتفقت عليه القوتان العظميان برغم ما بيـــنهما من عداوة مريرة ورعب قاتل متبادل، وظلتا تتفقان عليه إلـــى يومـــنا هذا حتى بعد أن تحول الاتحاد السوفيتى إلى روسيا الاتحادية بكل ما لديها من مشكلات ومتاعب.

إن أى بلد فى الدنيا، هو ملك لشبابه لا لشيوخه، فنحن راحلون، نحـــن الشـــيوخ، وعلينا أن نترك لشبابنا بيئة تصلح للحياة. كل ما يعانـــيه شبابنا اليوم من ضنك ويأس وما يرزحون تحته من أثقال الحياة، كل هذا ليس وليد السنة الماضية ولا التى قبلها، أنه يرجع إلـــى عشـــرات كثيرة مضت من السنين. وهذه هى أهمية النظرة التاريخـــية، أن نعـــرف من أين جاء هذا. إن فى هذا العالم أماكن تعانى من آثار حروب دارت فيها منذ مئات من السنين ، محاولة تحســـين الأحوال تبدأ بدراسة تاريخها وجذور المشكلات المتمثلة فـــيها، لأنـــه علـــى مستوى الـــ "ماكرو"، أى المستوى العمومى، الواسع النطاق، يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ومن هنا فلا غنى عن النظرة التاريخية .

أمس واليوم :

شـــبابنا يـــرون فى مصر الآن دولة ومجتمعاً يختلفان إلى حد هائل عما كانا عليه عندما كنا ــ نحن العجائز ــ ما نزال شباباً.

تتصف مصر الآن بهذه العلامات :

ـ على الصعيد السياسى العالمى والدبلوماسى، هى دولة داعية إلى السلام وراعية له، علاقاتها الدولية طبيعية وطيبة مع كل دول العالم تقريباً، قد تكون إيران ـ لشذوذها ـ هى الاستثناء الوحيد، وحتى هنا ، تحاول مصر أن تصلح من هذا الوضع . علاقاتها طيبة حتى مع الأضداد ، مثل تركيا واليونان، أو الهند والباكستان. حلت مشكلة طابا بالدبلوماسية وتوسطت بين تركيا وسوريا مما أدى إلى إنهاء وضع خطير بينهما . تساعد الفلسطينيين على التوصل إلى حل لمشكلتهم عن طريق السلام والتفاوض مع أن موقف القيادة الفلسطينية من مصر أيام كامب ديفيد ـ التى كانت بداية طريق السلام والتوصل ولو إلى شىء مع دولة كانت رئيستها جولدا مائير تقول أنه لا يوجد شىء اسمه الشعب الفلسطينى ـ موقف هذه القيادة من مصر ـ وموقفها أيضاً من الكويت التى فتحت أبوابها وخزائنها لشعب فلسطين بشكل لا مثيل له، كان يصلح تبريراً لأى موقف سلبى تأخذه مصر من تلك القيادة .

ـ على الصعيد الاقتصادي، مصر قد اتخذت موقعها فى العالم كعضو فى سوقه الكبيرة ، آليات السوق بدأت تعمل ، المشروعات والبنية التحتية تطورت بمعدل قد لا يكون له مثيل فى الدنيا، وحكومتها تشجع الاستثمار وجلب الأموال من الخارج، للمواطن المصرى ورجل الأعمال الوطنى أن يجلب ما يشاء وأن يحول ما يشاء لصالح الاقتصاد ولخلق فرص الأعمال. مصر عضو فى منظمة التجارة العالمية وموقعة على اتفاقية الجات .

ـ على صعيد السياسة المحلية، مصر لديها أحزاب معارضة وصحافة معارضة، صحيح أن الديموقراطية الكاملة لم تتخذ شكلها النهائى بعد، فقط ـ كما ذكرنا ـ نحن هنا فى مستوى الماكرو والقفز ليس هو الطريق إلى الانتقال الطبيعى .

ـ أقامت الحكومة على أنقاض البلد بنية تحتية كاملة من وسائل النقل والمواصلات لن ندخل فى تفاصيلها وسنكتفى بالقول

بأنها تشبه معجزة إعادة بناء ألمانيا على مستوانا .

نحن لسنا الآن بسبيل تقييم أى وضع أو إصدار الأحكام بأن هذا خـير وهـذا شر أو أن هذا أفضل وذاك أسوأ، إننا فقط نريد أن نتساءل :

ـ إذا كـان مـن الحكمة أن تبنى الدولة منظومتها الاقتصادية علـى آلـيات السـوق وتترك قوانين العرض والطلب تعمل على مستواها وعلى النطاق العالمى، وأن تكون هى واحدة من مكونات السـوق العالمية فى زمن العولمة، إذا كان هذا من الحكمة، فكيف يكـون اسـتيلاؤها وسـيطرتها علـى وسـائل الإنتاج والتوزيع والخدمات، كيف يكون هذا أيضاً عملاً حكيماً ومفيداً ومثمراً، علماً بـأن الفارق الزمنى بين التحول من الخصوصية إلى العمومية، ثم مـن هذه إلى تلك، ليس إلا الستينيات ونصف السبعينيات ؟ خمس عشرة سنة !!

ـ إذا كان وجود المعارضة السياسية أمراً لابد منه لترشيد آلية الحكـم وضـمان الحـد من الانحراف وإيجاد وسيلة إلى "الإدارة التشـاركية" وإلى شحذ الأفكار بالفكر المعارض ، إذا كان الأمر كذلـك ، وإذا كـان يتطلب درجة أو أخرى من الحرية فى تكوين الأحـزاب والفرق السياسية وفى إصدار الصحف التى لا تخضع لـرقابة الدولـة إلا من حيث حماية قيم المجتمع ، إذا كان الأمر كذلـك، فكيف نفسر تمجيد الحقبة التى جرى فيها إلغاء الأحزاب ومصـادرة أموالهـا وممـتلكاتها وتحويـل الصحف إلى نشرات حكومـية؟ كيف يكون الشىء وضده كلاهما حصافة صباح اليوم وحكمـة فى مسائه؟ علماً بأن الدنيا مليئة بالتجارب فى هذا وذاك ولا داعـى لأن نـتحول إلى معمل لإجراء الاختبارات فى أمور وضحت عواقبها وتخلى دعاتها عنها بشكل كان واضحاً تماماً حتى من قبل أن نشرع نحن فى ذلك ؟

ـ إذا كان التعايش مع دول العالم كله، والعالم العربى، سياسة

حكـيمة، مـع التناقض الفظيع فى الأنظمة على هذين المستويين، وإذا كان إقرار السلام مع إسرائيل هو السبيل الوحيد لاسترداد قدر ولـو ضـئيل من الحرية والكرامة لشعب فلسطين، كما هو الآن واضح تماماً من الموقف الأمريكى والأوربى، الذى أوقف الحديث عـن الوطن البديل، والذى جعل اسحق رابين وهو رئيس لوزراء إسـرائيل، يعلـن أنـه خجلان من حادث إطلاق الرصاص على المصـلين فـى الحرم الإبراهيمى، إذا كان هذا كله موقفاً حكيماً ومـثمراً، فكيف يكون كذلك، وأيضاً يكون خوض حرب كحرب ١٩٦٧ هو أيضاً موقف حكيم ويتصف بالشهامة والبطولة ؟

ـ إذا كانت علاقة مصر مع المملكة العربية السعودية ما هى عليه الآن، وما كانت عليه أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، فى عصر المغفور له الملك فيصل ، فكيف تكون هذه سياسة سديدة وحكيمة، ويكـون الدخـول فى صراع مسلح مع هذا البلد العربى هو أيضاً سياسة سديدة وحكيمة ؟ مما أوصل الأمور إلى دخول الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ والقوات المصرية مشتبكة مع قوات سعودية فى اليمن . أو على الأقل متخذة منها موقفاً شديد العداء ، من حيث أن المملكة السعودية ترى فى مصر حليفاً لقوى الشيوعية العالمية التى تعدها هى شراً مستطيراً لقائمة طويلة من الأسباب .

ـ وكـيف نـتحدث عن وحدة الصف العربى وغير ذلك من التعابـير النمطـية الـتى سادت الهواء إذ ذاك ، ونحن منحازون لإحـدى الكتلتيـن العالميتين، لا فى سياستنا الداخلية فحسب، بل وتنظيماتنا الداخلية أيضاً، وذلك بمقتضى ميثاق العمل الوطنى الذى يـنص علـى ما هو مسموح به للنشاط الخاص وهو قدر لا يذكر وينحصـر فـى الـتجارة الداخلية فقط تقريباً وبعض الصناعات الصـغيرة ، ثـم يضيف أنه يجوز للسلطة أن "تصادر النشاط" إذا انحـرف صـاحبه ، دون أن تحدد أوصافاً لهذا الانحراف ، فهى تتركه لتقديرها ، وكان شبابنا يتلقون المنح الدراسية من دول أوربا

الغربية فترد عليهم السلطات بأنها تفضل أن تتلقى المال الذى سينفق عليهم لتدريبهم هنا ، ويقال تفسيرًا لذلك أن شبابنا عندما يزورون هذه البلدان، فإنهم يتعرضون لأمور وأحوال تخالف عقائدنا ؟ لأن عقائدنا هى المادية الجدلية والتاريخية ، هذه هى عقائد المجتمع المصرى . إذا كان الأمر كذلك ، فكيف نقدم على معركة مصيرية مع العدو المشترك ونحن أكثر عداء لأصدقائنا وأبناء جلدتنا ؟ ألا يكون من الحكمة أن ننتظر حتى نحقق الوحدة أولاً، بنشر العقائد الاشتراكية فى أنحاء العالم العربى والإسلامى؟ هذا إن كانت هذه الخيالات ممكنة التحقيق !

خلاصة هذا كله هى أننا نتساءل ــ دون أن ننحاز إلى أى من النقيضين ــ نتساءل عن هذه المتناقضات، كيف يكون الشىء، ونقيضه صحيحين ؟ وإذا كان ما مضى وتخلصنا منه هو الخطأ، فلماذا نصر على امتداحه وعلى تعليم أبنائنا فى المدارس أنه كان عصراً مجيداً ؟ صحيح أنه مضى وفات . ولكن ماضى الأمم أكثر حياة وأكثر حقيقة من حاضرها، لأن هذا الحاضر هو مجموع أحداث الماضى ومحصلتها، وإذا كنا صادقين فى بناء الديموقراطية من أجل مستقبل أفضل ، فكيف سيمارسها الناخبون وقد تعلموا أن الخير والشر كلاهما خير مادام يأتى من السلطة ؟؟

مرة واحد صعيدى ...

"كل الفارق إذن أن الصعيد شق غائر ضيق ، بينما الدلتا مروحة مبسوطة مسطحة ، وهى أكثر طمية فى قلبها من الصعيد ، ولكنها أكثر منه رملية فى الأطراف . وفيما عدا هذا فالدلتا تتحلل فى النهاية إلى مجموعة مخففة مصغرة متراصة من "الصعيدات" فى نمط أشبه ما يكون بورقة شجر مقلوبة ، عروقها هى الضفاف المرتفعة ، وأرضيتها هى المجارى المائية، والتباين المحلى المحسوس لا يبين حقاً

إلا فى أقصى الأطراف الهامشية ، شمالاً فى الدلتا وجنوباً فى الصعيد الأقصى، فالأولى نطاق مستنقعى بحيرى ، والثانى شريط جنادل صخرى ، أما الفيوم ، فهى مصر الصغرى ... "

جمال حمدان : "شخصية مصر"

المصريون مولعون بالنكت و النوادر ... ويحسنون ابتداعها وتبادلها ويفوقون فى ذلك معظم شعوب العالم، وصدق من قال أن تبادل النكت هو الصحافة الحقيقية .

وأهل بحرى فى مصر يتخذون من الصعايدة ــ أهل الجنوب ــ أبطالاً لما يبتدعونه من النوادر ، على أساس أنهم ليسوا على نفس الدرجة من "المودرنيزم" التى يتصف بها أهل مصر السفلى، الذين يطلون على البحر ويواجهون أوربا ويتلقون البواخر فى موانئ الإسكندرية وقناة السويس ... إلخ ، وإلى عهد قريب كان بحرى ينفرد بجامعة القاهرة ، ثم بجامعة الإسكندرية ثم عين شمس من قبل أن يحظى هذا الشريط الضيق الطويل بحظه من الحياة الأكاديمية ، و يا للهول ! ولا تنفرد مصر بهذه الظاهرة ، فشمال ألمانيا هو "بروسيا" وجنوبها هو "بافاريا" والألمانى البروسى هو أيضاً يعد نفسه أعلى مستوى من صعايدة ألمانيا فى الجنوب ، والشمال هو موطن ميناء همبرج العظيم ، ومدينة دوسلدورف التى هى باريس ألمانيا، ثم المراكز الصناعية الهائلة التى تحيط بها. أما فى أمريكا فولايات الجنوب لا تتصف بالتخلف فحسب بل بالهوان الذى نالته فى الحرب الأهلية ، والعار الذى لحقها من التمسك بنظام عبودية البشر واسترقاقهم من أجل زراعة القطن ، وحتى يومنا هذا ما تزال ولايات ألاباما ومسيسبى وغيرها من ولايات "الجنوب العميق" كما يسمونه ، ما تزال تحظى بقدر هائل من الكتابات الدامية والساخرة ، من روائع وليم فوكنر إلى أفلام وحلقات الممثل الأسود سيدنى بواتييه المعنونة "فى

حرارة الليل"، والتى بدأت بفيلم كان هذا عنوانه ، ولن أنسى منظر الشـــرطى الأبيض الذى يحتقر بوايتيه لكونه أسود برغم كفاءته، وكانـــت قـــد وقعت جريمة قتل وقبضوا عليه لمجرد أنه أسود ثم اكتشـــفوا أنـــه محقـــق شرطى على مستوى عال جاء من الشمال ليزور أسرته، ونرى الشرطى الأبيض بعد المشادة يمسك بالتليفون ويقـــول للعاملـــة: حـــاولى أن تأتينى بخط المكالمات البعيدة من فضلك. والأمر هناك ليس بهذا السوء طبعاً، ولكن أهل الجنوب هم صعايدة أمريكا.

إلا أن صعيد مصر أعطى لمصر ما لم تكن تصبح هى مصر بغـــيره . لا مجـــرد حضارتها القديمة وتاريخها العظيم، بل هناك الكثـــير ممـــا هـــو حديث أيضاً ... ولكن المصريين ـــ بمن فيهم الصعايدة أنفسهم ـــ يلذ لهم أن يتندروا بالصعيدى الذى زار باريس وطلـــب طبق "انكور"، والذى نصحه طبيبه بأن يأكل "رجيم" فهو يتـــناول وجبته الهائلة ثم يطلب "الرجيم" وهكذا ... وأثناء سنوات الأربعينـــيات طلعت صحيفة كبرى على الناس بحكاية مؤداها أن "واحـــد صعيدى" جاء إلى القاهرة وانبهر بمنظر الترام. لم يكن قد رأى شـــيئاً كهذا فى حياته فلم يكن يوجد التليفزيون ولم يكن متاحاً له وسيلة أخرى . ولما رأى المارة ما بدا عليه من ذهول عرض علـــيه واحد منهم أن يبيعه له، فأخرج كل ما كان قد جاء به معه من مال وأعطاه له . وبعد ذلك أصبح هذا التعبير "الصعيدى اللى اشـــترى الـــترامواى"، تعبـــيراً نمطـــياً يدل على منتهى القروية والسذاجة.

وكان هذا منشوراً على أنه خبر حقيقى ، لسنا نعرف الآن مدى صحة ذلك ولكن أحداث الخديعة تحصل لخلق الله من حيثما يأتون ولا تقتصـــر على الصعايدة طبعاً . وقد كانت تلك هى الحقبة التى أعطى فيها الصعيد لمصر نصيباً وافراً من الحكماء، وهناك مثلاً : (مرة واحدة)عباس العقاد وطه حسين، معاً! وهدى شعراوى وعلى

عبد الرازق ...إلخ، والكثير من أبناء مصر الأقباط الذين كانوا من أقطاب الكفاح الوطنى، والعلوم والآداب والفكر والمال والتجارة .

وأعطاها أيضاً (مرة واحدة ، أيضاً) :

جمـــال عـــبد الناصـــر، ورفيق "كفاحه" و"زميل سلاحه"، عبد الحكيم عامر.

وقد اشترى عبد الناصر الترام فعلاً، ومرتين ...

مرة من العرب ، ومرة من الروس .

وفـــى كلتا الحالتين، كانت مصر هى الثمن الذى استخرجه من صرته.

وفى كلتا الحالتين ، كان لابد أن تمضى سنوات طويلة قبل أن يكتشف ما وقع له ومدى الخديعة من هنا ، والغفلة من هناك.

فـــى حالة العرب، لم يكن الانقلاب السورى سنة ١٩٦١، بعد الوحدة بثلاث سنوات فقط ، وما صاحبه من جرعة الإهانة التى لم يســبق لها مثيل ، لم يكن هذا كافياً له ليفيق إلى الواقع والحقيقة . يقال أن عبد الحكيم نفسه نال نصيباً وافراً من الضرب على قفاه ، مادياً ومعنوياً ، وصدرت إذ ذاك نكتة مصرية تقول أنه قد تم سك عملة جديدة عليها صورته، ومكتوب عليها "ضرب فى دمشق" ــ أما الضباط المصريون فذاقوا من الاعتقال والذل والهوان والإهانة مـــا لم يكونوا قد ذاقوه من قبل . لم يكن هذا كافياً ، بعد تضحيات الإقليم الجنوبى وسكانه من "الفلاحين المساكين" كما وصفتهم إذاعة دمشق إذ ذاك، من أجل "التجار الشوام"، وقف عبد الناصر يخطب قائلاً: "أنا مسؤول عن هذه الجمهورية من القامشلى إلى أسوان" ، لـــم يســـمعه سوى المساكين، وركب الترام وسار به إلى المحطة التالـــية، اليمـــن ليدفع المصريون ذهب بلادهم وأرواح أبنائهم، لا ليشتروا الترام ، بل السوارس. وذهب عبد الناصر إلى جدة ليقابل الملـــك فيصل، ورجع بخفى حنين كعادته ، ولعله بدأ يدرك حقيقة أحلامـــه فى إمبراطورية عربية عندما قابل فيصل مرة أخرى فى

الخرطوم بعد ظهور حقيقة "القوة الضاربة" ، وتفضل الملك وأذن بسحب "العساكر المصرية" كما أسمتهم إسرائيل ، بالسلاح الشخصي. وقف فيصل بعد ذلك بست سنوات وقفة جادة وحاسمة إلى جانب مصر فى هجومها الأول والأخير على إسرائيل حيث لم ينقذها إلا أكبر جسر جوى فى التاريخ ، وهذا يعطينا الحق فى أن نتساءل : هل كان فيصل سعيداً بما عملته إسرائيل فى مصر وسوريا سنة ١٩٦٧ ؟ لا شك فى شىء واحد ، وهو أن ما عملته إسرائيل قد قضى على كل آمل فى نشر الشيوعية "من المحيط الهادر ... إلى الخليج ... الثائر ؟ "

أما الترام الروسى فبدأ فى منتصف الخمسينيات بصفقة تبعتها صفقات من الأسلحة لا نعرف ماذا فعلت إسرائيل ببضائعها فى حربى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧. الذى شهدناه هو أنهم أثناء حرب الاستنزاف أنزلوا تسع دبابات روسية الصنع فى الزعفرانة وأحدثوا خسائر فظيعة . سافر عبد الناصر إلى روسيا مرتين بعد الهزيمة، وكلف الرفيق على صبرى ــ بتاع السجاجيد ــ بأن يتابع شحنات السلاح : "خلاص، على صبرى حايسافر مرة كل شهرين روسيا عشان السلاح"!، هكذا قال مرة فى مؤتمر شعبى، هكذا تحل المشاكل كأن لم تكن، وفى آخر زيارة له لروسيا، أفهمه بريجنيف ــ أو هو نفسه تجلت له الحقيقة بعد غياب طويل، وعرف أن الاتحاد السوفيتى لن يخوض حرباً عالمية نووية من أجله . كان فعلاً يظن ذلك وألمح إليه فى مؤتمر "إيدن الخرع" ــ ولما مضت الأيام وهو يحاول مرة بعد مرة أن يجد من يصغى إليه، أذيع أن الرئيس يعالج بما أسموه "المياه المشبعة بالإشعاعات"، أية مياه، وأية إشعاعات؟ فى موضع اسمه "تسخالطوبو"، تسخالطوبو فعلاً ياله من اسم على مسمى .

ويبدو أن الرئيس الراحل السادات كان صادقاً فيما رواه من أنه قابل عبد الناصر عند الطائرة فور عودته من تلك الرحلة، وأن

عـبد الناصـر قـال لـه إن الروس "هوبليس كيس"، هكذا قالها بالإنجلـيزية، يعنى حالة ميئوس منها . عندئذ فقط ، وبعد خمس عشرة سنة من واقعة شراء الترام الروسى، أدرك ـ عندئذ فقط ـ مدى ما وقع فيه من خديعة.

لـن أستطيع أن أنتهى من هذه الفقرة دون أن أروى لكم تجربة شخصية كما حدثت دون أن أضيف أدنى تعليق من عندى .

فى مطلع سنة ١٩٦٤كانت حرب اليمن تدور منذ ثلاث سنوات دون أن يبدو لها فجر يطلع ، وكنت أنا ما أزال ضابطاً فى سلاح المهندسـين ولكنـنى منـتدب للعمل فى مشروع السد العالى منذ ١٩٦٢ (ولدى وسام الجمهورية نظير ما قمت به هناك، يبدأ هكذا: من جمال عبد الناصر إلى فلان الفلانى)، وكانت "الوكسة" قد بقى عليها ثلاث سنوات ونصف ولكنها مكتوبة فى لوح القدر .

كـان مـرفق النقل العام لمدينة القاهرة يعانى مشاكل جسيمة، ولذلك قررت القيادة العامة للقوات المسلحة (برئاسة المشير عامر وبطانـته)، أن تهبط عليها كالملاك المنقذ، "الضباط قادمون" كما يمكن أن يقال، كأنما لتؤكد القيادة مرة أخرى أن عمل الضابط هو أى شـىء سـوى الدفـاع عن وطنه . ووجدت نفسى أشغل أحد مراكز الإدارة العليا فى هيئة النقل المذكورة .

كان واضحاً لى منذ البداية أن النقل سلعة كأى سلعة ، وأن لها تكلفـة وبالتالى يجب أن يكون لها سعر يغطى هذه التكلفة ويحقق لها ربحية تجعلها تظل قادرة على العمل والبقاء والاستمرار . هذه معادلة الحياة. وكانت أسعار التذاكر تقررها القيادة السياسية إذ ذاك ولا تريد أن تزيد منها وإلا وقع ما وقع بعد ذلك فى وزارة زكريا محيى الدين، بقية القصة معروف وهى قصة القطاع العام كله .

ليس هذا موضوعنا ، موضوعنا هو أن لجنة الاتحاد الاشتراكى أقامت احتفالاً سنة ١٩٦٦ ودعتنى لحضوره، وكان كل اجتماع من هذا النوع يدعو واحداً من نجوم الثورة أو "رموزها" طبقاً للتعبير

الـــذى يشـــيع الآن، وكان النجم فى تلك الحالة هو المرحوم السيد مجدى حسنين صاحب مديرية التحرير ... إلخ. وبعد الانتهاء من محاضـــرات الســـائقين والمحضلين حول الاشتراكية والقومية ... إلخ، تكلم الزائر الكبير ووجهت إليه أسئلة أجاب عليها وكان منها ســـؤال بشأن السياسة الخارجية لا أذكره جيداً ولكنى أذكر الإجابة علـــيه كمـــا لـــو كنت سمعتها من دقيقة واحدة . أظن كان يتعلق بموقفـــنا مـــن أمريكا والعالم الغربى ، بعد أن أجاب على السؤال أضاف هذا التعليق : "معلش الراجل بتاعنا أصله صعيدى ودماغه ناشـــفة شـــوية"، ولم يكن هذا بلهجة النقد والعياذ بالله ، بل بلهجة الحب والإعجاب المتناهى ...

دائرة معارف كاملة من النكت، منها هذه تناقلها شعبنا : حلف اسمه مصر ـــ يمين ـــ كوبا.

جرب أن تنطقها مرة بعد مرة إلى أن تكشف الحقيقة وتعـــرف إننا ـــ كلنا ـــ تفهم كل شئ ! وإلا فما كل هذه النكت ؟

obeikandl.com

اللبن والنفاية

" لم أر فى التاريخ شعباً أحسن العالم استغلاله كالشعب المصرى ، فهـــو من أعماق التاريخ كان بقرة حلوباً للهكسوس الذين ظلوا مـــائتى ســـنة ينهبون خيراته حتى أفاق من غيبوبته فطردهم بقيادة أحمس العظيم ...

ثم أصبح للرومان مصدر غذاء وطعام ، وكانت أهراء القمح فى مصـــر تمد روما بحاجتها منه ، واستمرت حقلاً للمستعمر الجديد مـــئات الســـنين ، ولا أطيل فى بيان استغلال الدول لنا فذلك قد سجلته كتب التاريخ من عهد الأتراك إلى أيام الإنجليز.

ولم يقتصـــر الأمر علي استغلالنا مادياً ، بل تجاوزه إلى استغلال إرادتنا التى ضاعت تقريباً فى كل هذه العهود".

دكتور . إبراهيم عبده : "تاريخ بلا وثائق" (١٩٧٥)

طلعت يا ما أحلا نورها — شمس الشموسة
يـــاللا بنـــا نملا ونحلب — لبـــن الجاموسة

أغنية مصرية

لقـــد فـــتح عبد الناصر خزانة الشعب المصرى ، طوال سنوات حكمه، لينهل منها المرتزقة العرب من السياسيين والصحفيين وباعة الخطـــب ومرتزقى المؤامرات . حرم الشعب المصرى من ثروته ، لـــيوزعها على صحف بيروت ويملأ بها جيوب أصحاب الألسنة الطويلة فى مقاهى بيروت وبغداد ودمشق .

إبراهيم سعده : "الروس قادمون"

فـــى منتصف سنة ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية فى مصر وشغل اللواء محمد نجيب ــ رحمه الله ــ رئاستها وكان أول قرار له هو

obeikandi.com

ترقـية عـبد الحكيم عامر من رتبة رائد (كانت تسمى "صاغ" إذ ذاك، وهـو الاصطلاح العثمانى) إلى رتبة لواء مرة واحدة . ولم تكـن القوى السياسية الراديكالية قد اتخذت أى مراكز للقوة حتى ذلـك الوقت ، كان الإخوان يمثلون السياسة التى تستغل المشاعر الدينـية لـدى الجماهـير، ومـا يزالون حتى الآن، والشيوعيون يسـتخدمون شـعار الاشـتراكية والعدالة ... إلخ، وهو ما يكفى لاجتذاب الشباب المتعلم ، ومعه نظرية الماركسية العلمية التى هى عـدة الشـغل عند من يطمحون إلى القيادة ، وكانت هناك أيضاً عناصر فاشيستية ما تزال تتنفس هنا وهناك ، كمصر الفتاة ، وبدا أول الأمـر أن "القيادة" كما كانت تسمى ــ أو الثورة كما أسماها قادتها ــ قد تحالفت مع الإخوان فى مواجهة الأحزاب المنحلة ، و أبقـت علـيهم على أساس أنهم جمعية وليسوا حزباً ، وبالتالى لا ينطبق عليهم قرار حل الأحزاب ، وفعلاً كانت نبرة الإخوان عالية وظلت كذلك إلى أن جرى القمع الأول سنة ١٩٥٤ ثم الثانى وكان أشد عنفاً ، سنتى ١٩٦٥، ١٩٦٦ .

أمـا الشـيوعيون فكان الحزب منظمة "تحت الأرض" طبعاً، وبـدأوا يتصـرفون بعصبية أثناء تلك السنة ١٩٥٣عندما تبددت أحلام "حدتو" فى وراثة الحركة المباركة وتفاقم الصدام الذى أدى إلـى إغـلاق مجلـتى "الكاتـب" و"الواجـب"، وأخذوا يوزعون المنشورات التى تعرض بالنظام . وقد كنت إذ ذاك ضابطاً بسلاح المهندسـين، مـنذ تكلـيف جمـيع خريجى كليتى هندسة القاهرة والإسـكندرية سنة ١٩٤٨ ــ سنة حرب فلسطين ــ وكنت أتلقى، كما كان يتلقى غيرى ، مثل هذه المنشورات بالبريد، وكنت أسلمها للسـلطات العسكرية المختصة، لا لمجرد الالتزام بالانضباط، بل أيضاً لأننى كنت إذ ذاك ــ وما أزال حتى الآن ــ أبغض كل نوع مـن الأيولوجـيات السياسية والاجتماعية وأعدها كلها أنواعاً من الدجـل الذى يمارسه من يدعون إليها ولا يهدفون من ورائها إلا

إلى استئناس البشر وإخضاعهم لإرادتهم بأن يوهموهم بأن السعادة فـي هـذا أو ذاك ، سـواء سعادة الدنيا ــ عند الشيوعيين ــ أو الآخـرة وربما شيء من الدنيا ، عند الأصوليين ، وكنت ومازلت لا أرى فارقاً كبيراً من حيث الفكرة الأساسية بين هذين المذهبين، وأعـتقد جازماً أنه لا يمكن لأية أيديولوجية أن تكون صحيحة فى كل جوانبها، فالناس والحياة أكثر تعقيداً بكثير من أن يكون الأمر بهـذه البساطة، وإذا كانت كلها صحيحة الآن فلن تكون كذلك لأن الدنيا ستكون قد تغيرت وهى باقية متجمدة كالحجر، وفى رأيى أن مـن يؤمـن بأيـة أيديولوجية سياسية اجتماعية يتخلى عن عقله ويسلمه إلى الزعيم ليتولى إدارة فكره وحياته ويتحول إلى درويش يسـتعبده أناس هم آخر من يصدق ما هو متدروش فيه ، وخاصة علـى جانـب السياسة الدينية، والمسلم المؤمن قد يحتاج إلى من يفسـر له القرآن والحديث ولكن طريقه إلى الله مفتوح وليس عليه إلا أن يؤمن به ويعبده هو لا واحداً من عباده.

كـان أول منشـور يسخر من مسألة عبد الحكيم عامر، وكان شـعورى ممـاثلاً أنا أيضاً ، خصوصاً عندما أصدر اللواء محمد نجيب تصريحاً قال فيه: "لو فتحتم قلبى لوجدتم عبد الحكيم عامر"، أى نـوع من الكلام هذا وهل يصح أنه يصدر من رئيس دولة هو أيضـاً جنرال ؟ أنا كنت فى جانب بلدى طبعاً ولكنى أحسست فى الحـال بأنـنى علـى الجانـب الآخر ورأيت كما يرى النائم أن الإسـرائيليين قـد "ماتوا من الضحك" كما يقال ، وأيقنوا أنهم لن يجـدوا أية مقاومة فى أية معركة مع مصر ، فكل من لديه أدنى فكـرة عـن العسكرية يعرف أن جيشاً مهمته هى "حماية مكاسب الشعب" كما قيل بعد ذلك ، سيكون قد تحول إذن إلى قوة بوليسية داخلـية (بصرف النظر عما إذا كانت حقاً مكاسب أم مصائب) ، وأن الجيش الذى تنتشر فيه طبقات من ضباط ذوى رتب متوسطة وصغيرة، يسمون "الضباط الأحرار" (بل ويجلس على قمته واحد

مـــن هؤلاء) يعرفون أن كبار مناصب الدولة فى انتظارهم وأن عليهم أن يتأهلوا لها وليس للقتال ، وكبار الضباط يخافون هؤلاء الصـــغار ويـــتملقونهم ويستحلفونهم أن يسعوا فى مصالحهم سواء بالمناصب أو المغانم ، وأنهم يتسابقون على هذه المغانم التي تتاح للجـــان جرد القصور ... إلخ، لن يختلف اثنان فى أن تنظيماً كهذا ســيكون عديـــم القـــدرة على القتال وأنه لا يرقى حتى إلى مرتبة الميليشـــيا السياســـية ... وهذا هو السبب الأوحد فيما جرى سنة ١٩٥٦ ثـــم ١٩٦٧ ، فهو لم يكن هزيمة ، لأنه لكى ننهزم لابد أن ندخل معركة ونخسرها، نحن لم ندخل المعركة أصلاً لأن الجيش كان قد تحول إلى جهاز للبوليس السياسى ، وكل ضابط يعرف هذا فى أعماق نفسه وإن كان يستحيل أن يواجه حتى نفسه به ، وكان يحلو لى إذ ذاك أن أشبه موقف الجيش فى مثل هذه الحالة بالفرقة المســـرحية التى يأتى مديرها فجأة ويطلب من أفرادها أن يحولوا المشهد التمثيلى إلى مشهد فعلى يعنى مثلاً يطلب ممن يؤدى دور "عطيل" لا أن يمثل أنه يقتل ديدمونة ، بل أن يقتلها فعلاً، لاشك أن الممـــثل سيطلق ساقيه للريح رافضاً الموقف كله ، هذا بالضبط ما حـــدث فى هاتين السنتين ، نحن لم نرسب فى الامتحان ، نحن لم ندخـــل اللجنة أصلاً . "الله ؟ هوة بجد" هكذا قال كل فرد لنفسه ، ومـــا عليك إلا أن تتأمل الأداء العسكرى سنة ١٩٧٣. علماً بأنهم كـــانوا نفـــس الأشـــخاص بالكـــامل تقريباً. ومن أبرع ما أنتجه المصـــريون مـــن النكت ــ وأكثرها دلالة على ذكائهم وعلى أنهم يعـــرفون الأمور على حقيقتها ، وإن كانوا يرفضون الإقرار بها لأنـــه "مـــا يصحش"، فأبناء المذنب أو المجرم قد يعرفون حقيقته ولكـــنه لا يجـــوز لهـــم أن يقروا بها : تقول النكتة إن ضابطين مصـــرى وإســـرائيلى قـــتلا فى الحرب وتقابلا فى الآخرة وسأل المصـــرى : مـــا كل هذه الأوسمة ياكوهين ؟ فأجابه : هذا نظير أدائى فى معركة اللطرون ، أما هذا فعلى ما أبديته من شجاعة فى

ممـــر مـــتلا.. وأنت ، ما كل هذه الصفوف من الأوسمة ، فأجاب المصرى : هذا وسام معركة عمر أفندى وهذه شركات للمقاولات وهذه معركة المطاحن والمخابز ... إلخ.

ليســـت العســـكرية مجرد انضباط ، ولكن الانضباط والإمرة Command هـــو إطارهـــا الذى لا تخرج عنه ، والقائد العسكرى نوعية خاصة جداً من البشر ــ وستأتى لمزيد من هذا فيما بعد ــ "ســـلالة" كما يمكننا أن نقول ، وقد درج الألمان على أن يستمدوا جـــنرالاتهم مـــن إقلـــيم بروسيا بالذات ، فالضابط رجل على أتم اســـتعداد لأن يمـــوت من أجل بلده ... وأن يطيع أوامر قائده بأن يقتحم أشد الأخطار هولاً. وهو سليم البدن حاد الذهن على مستوى عال فى إدراكه لفنون الإدارة والقيادة وللحياة عموماً ، مثقف جداً فى التاريخ والفكر والفنون .

كـــان هذا المنشور إذن يتحدث عن ــ وأنا أنقله حرفياً ولاحيلة لـــى فـــى ذلـــك ــ "الصبى عبد الحكيم عامر الذى رقى من رتبة الصـــاغ إلـــى رتـــبة اللواء بأمر جمهورى رقم واحد !" ــ سلمته للأمن إذن وسرعان ما جاءنى منشور آخر هزنى هزاً عنيفاً واقتلع قلبى من القفص ...

كـــان رســـماً كاريكاتوريـــاً هذه المرة ، جاموسة هائلة الحجم سوداء اللون مكتوب عليها "مصر" ، فمها محشو بالبرسيم ، تتدلى مـــنه أعـــواد وهـــى تلوكها بكميات هائلة، وتبتلعه بكفاءة عالية، فضـــروعها منـــتفخة باللبـــن ، وقد جثم أسفلها عدد من الصغار يرضـــعون من حلماتها مباشرة كما يعتاد صبيان الفلاحين ، فقط هـــؤلاء كانوا من أشكال متنوعة ، هذا أبيض مكتوب عليه سوريا وهـــذا أسود مكتوب عليه السودان وهكذا ، ذيل الجاموسة مرفوع فـــى الهواء ومؤخرتها تقذف كتلاً اسطوانية الشكل ، كما لو كانت فوهـــة مدفع ، تطير هذه الكتل من روث البهيمة فى الهواء لتسقط على رءوس جمع من الناس مكتوب عليهم "الشعب المصرى".

أفزعتنى هذه الصورة، وحاولت قدر استطاعتى أن أبعدها عن ذهنى وأمكننى ذلك بقدر محدود ، إلى أن مرت شهور وقرأت فى الصحف عن جريمة قتل كانت ضحيتها شابة مصرية، والجانى فيها زوجها، وهو طالب سودانى. استفزت القصة عواطف المصريين وكانت جرائم العنف والقتل ما تزال أمراً غير مألوف بالقدر التى هى عليه الآن. وازداد الناس غماً عندما صدر حكم محكمة الجنايات بتبرئة القاتل دون حتى حكم موقوف التنفيذ. كل الناس تقريباً يعرفون طريق صلاح سالم ، ولكن أغلبهم لم يكن معاصراً لهذه الشخصية الفريدة ، وكان أول من شاء الله أن ينتهى أجله من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة كما كان يسمى، مما كان موضوع نكتة مصرية أخرى نمسك عن روايتها* لمافيها من اجتراء على حرمة الموت الذى هو قدرنا ومصيرنا جميعاً، ويقال أن النكتة ــ شأنها شأن جميع النكت ــ وصلت إلى مسامع عبد الناصر وأنه تجهم وجهه لسماعها، وإن كان لم يتعظ بها. منسوب لصلاح سالم المذكور أشياء كثيرة رواها اللواء محمد نجيب، منها أنه اغتاظ مرة من ضابط شاب فى المخابرات، كان أبوه زميلاً للواء نجيب، وأنه إنهال عليه ضرباً حتى تقيأ دماً ومات بعد ذلك. ترى كم إسرائيلياً قتلهم صلاح سالم وحمزة البسيونى وأمثالهما من شجعان الضباط ؟

كان صلاح سالم مسؤول ملف السودان كما يقال، وكان قد وضع كل إمكاناته فى خدمة الحزب الوطنى الاتحادى بزعامة إسماعيل الأزهرى وبقية القصة معروف ويا لها من مهزلة .

موضوعنا هو أنه وقف فى أحد اجتماعات الـ "هيلا بيلا" التى كانت تعقد إذ ذاك ، وتذاع فى الراديو ، لم يكن هناك تليفزيون ،

---

* عدت فرأيت أنه لا بأس بروايتها، النكتة تقول : إذا كانوا حايموتوا واحد كل عشر سنين يبقى القيامة حاتقوم وهم قاعدين! وكان يصاحبها نكته أخرى فى ذلك الوقت ! إزاى يا أخى وقفوا تمثال رمسيس ؟ ده وزنه ستين طن ؟ أجاب الآخر : إذا كانوا وقفوا حال البلد مش هايعرفوا يوقفوا تمثال .

وكـــان معـــتاداً أن تأخذه الجلالة ويحزق حتى تكاد تطلع روحه. يـــبدو أن أحد الحاضرين أثار موضوع القاتل البرئ، وكان تعليق صـــلاح سالم أنه إذا كان القاضى قد حكم بدافع من وطنيته فماذا نفعل؟ هذا هو مفهوم الوطنية عند هذا الكائن، تعالوا افعلوا بنا كل ما تريدون !

رضـــعة جديدة من لبن الجاموسة هذه! مضى الحال على هذا المنوال، من ضياع هيبة القادة العسكريين إلى ضياع هيبة القضاة، مـــنهم من استقال ومن انتحر ، انتهى هذا بالهزائم المشينة وذاك بمذبحة القضاة، كل القيم لم يعد لها أدنى وجود، انتهاك النساء أمام أزواجهم وأبنائهم، الخزائن فى بيوت الكبراء، إنفاق أموال الشعب فـــى ممارســـة الترف والنعيم ، كلها قصص سمعناها من هؤلاء الكبراء أنفسهم أو نشرتها صحافتهم، حكى الرئيس السادات قصة خزينة عبد الناصر للناس فى التليفزيون وهو رئيس الدولة، فماذا جرى بعد ذلك ؟ لا شىء ! نشرت القصص عن قتل عالم كبير فى الطـــب هو أنور المفتى، ثم ماذا ؟ لا شئ... إلى آخر هذه المآسى التى نعرفها جميعاً.

كـــان هذا كله ثمن "الترام السودانى" الذى اشتراه صلاح سالم، مع أنه "ابن بحرى" .

كثيراً ما سألت نفسى، كيف يجرى ما جـــرى سنة ١٩٦٧ دون أن توجـــه كلمـــة لوم واحدة لعبد الناصر الذى أعلن للناس أنه هو المســـؤول، ولم يكن فى حاجة لذلك فقد شاهدوا المؤتمر الصحفى الشهير: "إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلا و سهلاً ! " يعنى، تعالوا اضـــربونا ! وكيف تدخل الحرب وهذه حالة جيشك؟ لماذا لم يلمه أحـــد حـــتى فى جلسة خاصة؟ لأن فلسطين لم تعد سوى ذريعة للحكـــام ليفعلوا ما يشاؤون ببلادهم ، قميص عثمان كما قال نزار قـــبانى. مـــا قيمة الضفة أو القدس أو غزة؟ لقد وقعنا على غنيمة يهون هذا كله فى سبيلها . جاموسة سمينة نستمد منها مـــا نشـــاء

ونجعلها تـــ .. على دماغ الفلاحين المهابيل دول .

الدنيا كلها تضحك علينا وعلى غفلتنا، فالدنيا كلها تعرف أنه لو لم يبق فى العالم سوى روسيا فهى لن تسمح لنا بأن نهزم إسرائيل ونعيد الأراضى المقدسة إلى ورثة العثمانيين ، بل لو لم تعد هناك ســـوى ألمانيا فالألمان سيقفون إلى جانب اليهود إذا كنا نحن الذين نحاربهم، وشيئاً فشيئاً لم تعد الغنيمة هى مجرد لبن الجاموسة، بل دمهـــا ولحمها وعظامها ثم جلدها الذى تحول إلى أحذية لكل دابة تمشـــى علـــى قدميـــن.. تأمل هذه الصورة وحدها : منطقة قناة الســـويس، أربع مدن كبرى وعشرات من البلدان والقرى، يسكنها خمســـة ملاييـــن مصرى ، يعنى أضعاف شعب فلسطين ، هؤلاء يتشـــردون ويجـــرون مذعوريـــن هـــذا يحمل العيال وهذا يحمل التليفزيون أو الأوعية أو يجر بطانية ، يوزعون على عشش رأس البر وغيرها من المعسكرات ، بعبارة أخرى ، اقتطعت من مصر سيناء، ومنطقة القناة ، وتشرد خمسة ملايين مصرى، تحولوا إلى لاجئيـــن ومتســـولين، ترى كم مرة تبلغ هذه الكارثة حجم كارثة فلســـطين ؟ وكـــم مرة بلغت كارثة فلسطين قدر حجمها الأصلى نتيجة لذلك؟ وأى عقلية سياسية أو عسكرية أو قيادية تجد أدنى قدر مـــن الحكمة فى أن تظل مدفعيتنا "تعزق" فى صحراء قاحلة وهم ليسوا فى حاجة حتى إلى أى جهد فى التصويب، أى قذيفة ستسقط فـــى مديـــنة أو مـــزرعة أو مـــنطقة صـــناعية أو سكنية! حرب الاستنزاف فعلاً ! استنزاف من ؟

البوَظَانْ :

ليســـت هـــذه كلمة بذيئة ولا حتى مهينة ، فقد كانت تشيع فى الحياة العسكرية أيام التحقت أنا بها سنة ١٩٤٨ كضابط مهندس* مكلف أنا وزملائى من خريجى الهندسة كما سبق ، ولما كنت قـــد

* قضـــيت فترة معلما فى مدرسة الضباط المهندسين، وكان من تلامذتى فى إحدى الفرق أبو عمار. كان أقل تسببا فى الضرر فى ذلك الوقت.

تركت الخدمة منذ ثلاثين سنة (وكنت فى الجانب الفنى طيلة الوقت، وليس القتالى) فإننى لا أعرف ما إذا كان هذا "الاصطلاح" ما يزال شائعاً فيها، ولكنه كان كذلك إذ ذاك، وأذكر مرة كنا نصطف فى فناء الكلية الحربية، مئات من الطلبة، ووقف واحد من كبار المعلمين (أصبح وزيراً بعد ذلك) وصاح يخاطب الجميع "كل صف ضابط فى الكلية دى بايظ !" كان يقصد أن حملة رتب ضباط الصف بين طلبة الكلية ليسوا بالقدر المطلوب من الانضباط، أو "الضبط والربط" كما كانوا يسمونه. وكان معتاداً جداً أن تجد ضابطاً أو صف ضابط يعنف مرءوساً له بقوله "يا بايظ!" وهى ليست ــ كما سبق ــ كلمة بذيئة ولا مهينة ، إنها ــ فى قاموس العسكرية ــ لا تعنى أكثر من الحاجة إلى مزيد من إطاعة الأوامر، وذلك لأن الأوامر فى ظروف المعركة وشبح الموت محلق فوق الرءوس، إذا تعرضت لأدنى قدر من التردد ــ ولا أحد يزعم أن هذا لا يحدث، فقد كان موضوع كتابات عديدة ــ قد يؤدى إلى أن يهرب كل واحد بجلده .

ومن هنا فإن التقاليد والاحترام الذى يقرب من التقديس ، هى روح حياة الجندية . والقائد العسكرى يتربى على أنه قد اختار لنفسه حياة تشبه الرهبنة، فهو لا يسعى إلى النعيم أو الترف وإنما إلى قيمة معنوية عظمى، وهو دائماً على استعداد لاحتمال الشظف والعناء البالغ، برغم أنه فى التقاليد البريطانية مثلاً، قد يكون سليل أسرة من النبلاء أو الأثرياء ، الواقع أنهم درجوا على انتقاء الضباط المحترفين من هذه الطبقة، وكانت الكلية الحربية عندنا لغاية الخمسينيات تستلزم ممن يتقدم للالتحاق بها قائمة بأملاكه للإطمئنان إلى أن هذا الشاب الذى سيصبح قائداً يهب نفسه وحياته لوطنه، لن يرزح تحت نير الفاقة المدمرة ولن يشغل نفسه بأن يحلم بوسائل الكسب والانتفاع ، وأنه سوف يتقبل الموت مطمئناً على عياله ، ثم التقاعد المبكر إذا عاش، وهو واحد من السمات

القاسـية فـى الحياة العسكرية، وعلى الجانب الأمريكى نرى أن جوزيـف كنـيدى، الأخ الأكبر لجون الذى كان رئيساً ، خدم فى القوات الجوية فى الحرب العالمية الثانية وقتل فى طلعة جوية أثناء غزو نورماندى، وكان جون نفسه ضابطاً فى البحرية فى الحرب ذاتها وأصيب بجراح خطيرة، ومعروف أن هذين الأخوين ينتميان لواحـدة مـن أكثر العائلات ثراء فى العالم ، وأمام كل منهما ــ والألـوف من أبناء اللوردات والمليونيرات ــ حياة كلها ترف لا يعلـو فوقـه ترف ، وقد كان قائد البحرية البريطانية فى معركة نورمـاندى المذكـورة هو اللورد ماونتباتن، وهو قريب الملكة ، قصـارى القول إن القائد العسكرى يهب نفسه لحياته، ليس معنى هـذا أنـه يعيش بلا طموح، فقد أصبح ماونتباتن هذا بعد الحرب آخر نائب للملك فى الهند، (ولم يكف عن الكفاح وقتله ثوار ايرلندا بعـد ذلك)، كما أصبح ديجول رئيساً وأباً روحياً لفرنسا ، وأصبح ايـزنهاور رئيسـاً لأمـريكا، فقط عندما يصبح الجيش نوعاً من الأوليجاركية الحاكمة، ومعملاً لتفريخ ذوى الحظوة، وعندما يعمل صغار الضباط كعملاء للسلطة، والكبار يحلمون بوظائف الإمارة والـوزارة والسـفارة عن طريق الصغار، فهذه أعلى درجة من الـبوظان الحقـيقى . والتطبيق الفعلى واضح النتائج، هذا الوضع الشـاذ المشـين، قـد دمر ــ فيما دمر ــ طاقات المحترفين من المديرين والسفراء وكل أصحاب المهن وحطم معنوياتهم وعلمهم المذلة وفقدان الكرامة وقضى على أرواحهم المهنية ، وهو عندما وضـع له حـد أمكـن للجندى المصرى أن يحقق ذاته فى الأيام الأولـى لمعـركة أكتوبر التى ذاق فيها الإسرائيليون أمر هزيمة واصطف جنودهم فى صفوف الأسر وما عليك إلا أن تقرأ ما كتبه كيسنجر عن استغاثتهم التى لا توصف إلا بـ "الحقينى يا ماما" و لحقتهم ماما بجسر جوى لم يسبق له مثيل.

العسكرية المصرية

"فى هذه الأثناء أيضاً بدأنا فى تجميع كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، وكان هذا سهلاً للغاية ، ففى عمليات التدريب على ضرب النار كان من السهل أن يقرر ضابط أن رجاله ضربوا مائة ألف طلقة بينما هم استهلكوا عشرين ألفاً فقط، وهكذا تجمع لدينا كميات هائلة أعطينا قسماً منها للإخوان المسلمين ، وقسماً آخر تسلمه أحمد فؤاد ليوصله إلى حدتو ، وقد أبدى عبد الناصر دهشته عندما أبلغته بذلك ، وقال : أنا أعرف أن الشيوعيين بتوع كلام وسياسة ومش بتوع عمل مسلح ... ولكننى أبلغته أن لهم مجموعة فى القناة اسمها الأنصار، ووافق على تسليمهم الذخيرة والسلاح ".

"ثمة مثل عسكرى فى صيغة سؤال غريب ، وإجابة أكثر غرابة : "والدك أقرب إليك أم قومندانك ؟ وأجيب : قومندانى طبعاً ـ ليه؟ لأن والدى أعيش معاه ، أما قومندانى فأنا أموت معاه" .

"أما أنا فقد عدت إلى الفرسان ، لم أطلب منصباً ، طلبت فقط أن أبقى مع رجالى وزملائى وتقرر أن أعمل كضابط مخابرات سلاح الفرسان، وكان مفهوماً منذ البداية أننى لن أعمل كضابط مخابرات تقليدى، وإنما سأمارس نشاطاً سياسياً فى السلاح من خلال تفرغى لهذا الموقع ، وكان هذا طبيعياً ، فقد كان حسين الشافعى أعلى رتبة منى، ولم يكن بالإمكان أن أتولى فى الفرسان موقعاً أعلى منه أو أدنى منه بينما أنا عضو فى لجنة القيادة التى أصبحت بشكل أو آخر تمثل سلطة السيادة فى مصر".

"والحقيقة أننى وبسبب تكوينى الشخصى كنت راغباً فى

الاستمرار مع الضباط وطبعاً كنت أحمل شكاواهم وطلباتهم ، وحتى طلبات أقاربهم ، وطلبات بعض أبناء كفر شكر لمحاولة إيجاد حلول لها فى الوزارات المختلفة، وغضب عبد الناصر وكان يعاتبنى مؤكداً أن وضعى فى مجلس القيادة لا يسمح لى بذلك ، ولكننى كنت أعتقد أنه لا قيمة لوضعى هذا إذا لم أوظفه لحل مشكلات زملائى الضباط ، وخاصة الذين خاضوا معى الأيام الأولى لحركتنا".

خالد محيى الدين : "والآن أتكلم" (١٩٩٢)

ـ للأسف، كان الفريق رياض قد أصدر للتو أمراً إلى الوحدات التى لا تزال تحارب فى الضفة الغربية للأردن ، بالانسحاب إلى الضفة الشرقية . وأعطينا فوراً أمراً مضاداً إلى قواتنا بالبقاء فى مواقعها.

ـ كان رياض يعتبر أن السياسة العربية مسؤولة عن كل خطأ وقع خلال أزمة حزيران ١٩٦٧، وفى رأيه أن هذه السياسة ارتكبت بحق القوات العربية جرائم أكثر مما ارتكب الإسرائيليون خلال تلك الحرب . وكنت من رأيه تماماً .

ـ فى ٣٠ أيلول ١٩٦٧ تمكنت من الاجتماع بعبد الناصر فى القاهرة ، وقررت معه النقاط الخمس الآتية لتحديد الموقف العربى: ١) نقبل الاعتراف بحق كل واحد فى العيش بسلام وأمن فى هذه المنطقة ، بما فى ذلك إسرائيل ..."

ـ كانت معظم أوامر رياض تثير اعتراض الضباط الأردنيين ، فيبادرون إلى الاتصال باللواء عارف المجالى .. عبد المنعم رياض رجل ذكى، يضج بالحيوية ، ولكنه بدا لى فى الظروف العصيبة دون المستوى المطلوب ، كان مفروضاً فيه أن يعرف الجيش الذى دعى إلى تولى قيادته، وأن يعرف الأرض التى سيناور عليها.

الملك حسين : "حربنا مع إسرائيل"

عندما حدثت الأزمة سنة ١٩٦٧، كنت رئيساً للقطاع الميكانيكى بسلاح المهندسين، ووجدت فى مكتبته كتابين أمتعتنى قراءتهما، وهما من تأليف الأمير عمر طوسون، أحدهما "الجيش المصرى فى عصر محمد على "، والثانى "الجيش المصرى فى حرب القرم" ــ كانت هاتان الحقبتان مرحلتين مجيدتين فى تاريخ العسكرية المصرية، والمؤلف يصف بصيرة محمد على فى تصوره أن الفلاح المصرى يمكنه أن يتحول إلى مقاتل بعد أن مضت عليه ألوف السنين لم يمارس فيها تلك المهنة ، ويتحدث المؤلف عن مشكلة القيادة، أدرك محمد على ــ الذى كانت شريعته هى بناء دولة حديثة مستقلة من أنقاض أول دولة فى التاريخ ــ إنه لن يستطيع أن يخلق قيادات عسكرية من هؤلاء الفلاحين قبل انقضاء جيل أو اثنين ، فجاء بالألبان والجراكسة والأرناؤود ليكونوا هم "اللبنة الأولى" كما يقال ، وجاء بعده الحاكم العظيم إسماعيل ، ابن الجنرال اللامع والقائد المنتصر إبراهيم باشا، والذى كان ــ إسماعيل ــ صاحب الشعار الذى يدل على عمق إدراكه لحقائق العصر: "مصر قطعة من أوربا" ــ فأرسى دعائم العسكرية المصرية الحديثة، التى أخرجت عرابى والبارودى وأمثالهما من القادة العسكريين الشجعان.

إلا أن الدنيا كانت قد تطورت، تحولت البنادق إلى رشاشات وصواريخ، والخيل إلى دبابات وعربات مصفحة، والرسل والحمام الزاجل إلى شبكات تليفونية (والآن أقمار صناعية وأطراف ذكية ... إلخ) ولم تعد الشجاعة والشهامة، والكاريزما، تكفى للصمود أمام التفوق النوعى التكنولوجى، وقد تعلم الأتراك ــ "الأشاوس" ــ تعلموا هذا عندما خاضوا الحرب حلفاء لألمانيا فى مواجهة الإنجليز والفرنسيين الذين مزقوا أوصال إمبراطوريتهم التى دب فيها التسوس نتيجة للتخلف العلمى والحضارى، وتعلم اليابانيون الدرس نفسه فى الحرب الثانية، برغم نهضتهم العظيمة، عندما

حط عليهم الجحيم النووى من خلال الغيوم .

لكل عصر حضارة سائدة، تمثلها قوة تقود هذه الحضارة، وتتمثل فى مستوى المعرفة وما يصاحب تقدم المعرفة من تطبيقات وتطورات فى جوانب الاقتصاد والصناعة والزراعة والفكر والفلسفة والفنون والممارسات السياسية ونظم الحكم والإدارة، والمواثيق الخلقية والعقائدية. وليس عيباً أن يتعلم الناس من المتقدمين، ولا يستتبع ذلك أن يخضعوا لهم أو أن يسيروا فى ركابهم، الواقع أن الصراع المادى مع المتقدمين هو الذى يأتى بهذا المصير للمتخلفين، ولو أن اليابان عندما خضعت للاحتلال الأمريكى بعد هيروشيما، أصرت على مقاومة هذا الاحتلال وعلى أن ترفع شعاراً مثل الجلاء التام أو الموت الزؤام، لكان مصيرها هو الفناء الذى حذر منه هيروهيتو، هذا مع مراعاة أن تاريخ البشرية قد لا يضم نظيراً لما أظهره اليابانيون من الشجاعة والفداء، وحتى الآن ما تزال جزر كوريل اليابانية تحت احتلال الروس.

كان لابد للعسكرية المصرية أن تتطور. ولكن الزعامة السياسية والدينية التى سادت مصر أثناء حملة نابليون فى مطلع القرن التاسع عشر ثم مرة أخرى من بداية الاحتلال الإنجليزى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ، مضت تركز على استغلال العاطفة الدينية والوطنية عند أبناء بلادنا الطيبة ، وتعلم المصريون ألا يتعلموا من الإنجليز لكونهم أولاً محتلين ، وثانياً كفرة ...

كما أن مصر لم تشارك فى الحرب العالمية الثانية برغم هجوم الطليان علينا واحتلال ساحلنا الشمالى الغربى ، ثم الألمان الذين كانوا على بعد خطوات من الإسكندرية، ثم قامت السلطات بطرد البعثة العسكرية التى كانت مهمتها تدريب الجيش (نعم، والسيطرة عليه ، لن ننكر ذلك ، فقط هذا ما دأبت عليه قياداتنا السياسية المتخلفة، نحن نرفض كذا ونرفض كيت ، الخصام والقطيعة ...)

وهكـذا فوتـنا على أنفسنا تلك الفرصة النادرة فى بناء عسكرية جديدة حديثة، بخلاف الهند مثلاً التى حاربت مع الحلفاء دفاعاً عن الديموقراطية التى اختارها زعماؤها نظاماً لبلادهم المستقلة .

لا أحـد يستطيع أن يزعم أن الحرب شىء مرغوب، لعنها الله ألـف لعنة، فهى "ما علمتم وذقتمو" كما قال زهير فى معلقته،فقط هـذه إحدى المعادلات الصعبة فى هذه الحياة، وقد قيل إن الشدائد تصـنع الـرجال، وقديماً قال الفيلسوف الإغريقى هيرقليطس أن الحرب هى أم الرجال، وأنها تجعل الأقوياء سادة والضعفاء عبيداً، وهـذه ــ عنده ، كما عند فلاسفة الفاشية ــ هى العدالة بعينها. لا أحـد يقول بذلك، فقط مواجهة الأزمات على مستوى المجتمع هى السـبيل الوحيد لبناء القدرة على مواجهة ما يخبئه المستقبل منها، صـحيح أن المناورات الجيدة التخطيط والتدريب الذكى واستخدام وسـائل المحاكاة simulation يحققان قدراً كبيراً من هذه القدرة، فقط هناك فارق هائل بين إحساس الفرد ــ والقادة بصفة خاصة ــ بـأن قراراتهم الخاطئة سوف تؤدى إلى رسوب فى الامتحان، أو أنها قد تؤدى إلى هلاك الألوف من أبناء بلادهم (سنرى كيف أن بعـض القـادة لا تشغلهم هذه المسألة بل أحياناً يريدونها من أجل سلامتهم هم). ولا شك أن مناورات النجم الساطع التى تشارك فيها القـوات المصرية قد جاءت بصفحة جديدة تماماً فى تاريخها مما وضح أثناء مشاركتها فى حرب تحرير الكويت .

يرى المؤرخون العسكريون الأمريكيون أن الحرب، والأزمات بأنواعهـا مع المكسيك (١٨٤٦ – ١٨٤٨) التى خاضتها الولايات المتحدة ضد ذلك البلد كانت هى التى أفرخت القادة العظماء الذين خاضـوا الحـرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ – ١٨٦٥)، ومنهم الجنرالات يوليسيز جرانت، ووليم شيرمان، الشماليان، وقائد قوات الجـنوب روبـرت لى، وكذلك كانت الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨) هى المدرسة التى تخرج فيها عظمـاء الجنـرالات فـى

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) .

لكل شيء قبيح ميزة أو أخرى إذن، والحرب ليست استثناء من هذه القاعدة، بل إن السيطرة الأجنبية ليست هى أيضاً استثناء من ذلك، وقد كانت الحركات الوطنية المصرية منذ أوائل القرن العشرين والتى تزعمها مصطفى كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلول ومن خلفوه فى زعامة الوفد والأحزاب الأخرى المنبثقة عنه وغيرها، كانت هذه الحركات تحض الشعب بكل طوائفه على طرد المستعمر تحت شعار الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ولكنها لا تحاول أن تسبر غور هذا المستعمر وتعرف أسرار قوته ثم، وهو الأهم ــ أن تكتسب هذه القوة ، وقديماً قيل "من عرف لغة قوم أمن شرهم" ، وهكذا فاتت علينا فرصة بناء قوة قتالية حديثة عن طريق أداء ولو دور متواضع فى الحرب العالمية بل كان محظوراً على المصريين أن يتطوعوا كأفراد فى قوات الحلفاء، وكما سبق ، كان لدينا ما يدعونا لذلك فقد احتلت رقعة كبيرة من أرضنا بواسطة قوات المحور ، وكانت معارك الدبابات فى الصحراء الغربية فرصة لا مثيل لها لإتقان هذا الفن ولكن شعارنا كان أن هذه حرب "لا ناقة لنا فيها ولا جمل" ، ولن يفوتنا هنا قبل أن نمضى فى حديثنا أن نذكر أن معركة المدرعات التى خاضها الجيش المصرى فى سيناء سنة ١٩٧٣، هذه المعركة ــ كما هو مذكور فى العديد من المؤلفات التى كتبت عنها ــ واحدة من أعظم معارك المدرعات فى تاريخ الحروب، وقد بلغت خسائر الإسرائيليين فى الثلاثة أيام الأولى أربعمائة دبابة، وأنا هنا أنقل من مذكرات كسينجر الذى ينقل بدوره عن الملحق العسكرى الإسرائيلى الذى رجاه أن تعمل أمريكا على إنقاذ إسرائيل وأيضاً ألا يترك هذه المعلومات تتسرب، وبقية القصة معروف، فقد تلقت إسرائيل أعظم وأضخم جسر جوى لنقل المدرعات رأته الدنيا فى تاريخها . لا عجب، فقد كان جنرالات مصر قد عادوا قادة

عسكريين وليس مجرد فرق من الانتهازيين المتهافتين على الوظائف والمراكز فى المصالح والوزارات، وسوف نعود لهذه المسألة البالغة الأهمية فى حاضرنا ومستقبلنا.

ثم فى سنتى ١٩٥٣، ١٩٥٤، استعانت مصر بالخبراء الألمان كما هو معروف، وأنا واحد من الذين عاصروهم ، وعاصروا الروس من بعدهم. ووقف الاستعمارى العتيد ونستون تشرشل يندد بهؤلاء الألمان ويتعهد بأن يطلب من كونراد أديناور مستشار حكومة ألمانيا الغربية إذ ذاك أن يعمل على سحبهم من مصر لكى لا تتحول إلى مصدر للخطر ، لم يكن هناك داع لأن يقلق تشرشل على مصالح الأسد الجريح ، فالألمان ــ مع إقرارنا بكفاءتهم الحربية التى ليس لها ، وربما لن يكون لها، نظير ــ كانوا وهم عندنا. كما يقول المتنبى: "أنى ... بما أنا باك منه محسود"، فهؤلاء كانوا ضباطاً و"كان" فعل ماض ، ولا قيمة لقائد عسكرى لا يقود شيئاً ولا ينتمى لجيش له كيان وله وجود ولمعاهد عسكرية فيها قلوب تنبض ، كان الخبراء الألمان مجرد "أفندية" يحضرون الطوابير، هذا ينط بالمظلة وذاك يعمل لحساب شركة تنتج القوارب أو الطلمبات ، على أى حال كان عصر الخبراء الألمان مجرد واحدة من المغامرات الكثيرة المتتابعة ، كما أن هذه الحقبة من تاريخ الحركة المباركة كانت هى التى كانت أسلحة الجيش تتصارع فيها من أجل غنائم الثورة وقصورها ومجوهراتها وسلطاتها وامتيازاتها ؛ وكانت قواتنا من المدفعية والمدرعات تستخدم تكتيكاتها فى محاصرة "الميس الأخضر" و"الصاغ الأحمر" وغير ذلك من ألوان الطيف ، وأذكر أننى كنت أحادث ضابطاً من القلائل الذين كانوا إذ ذاك يرون فى أنفسهم شيئاً يمتد إلى ما وراء الانتهازية التى كانت هى "العقيدة العسكرية" السائدة إذ ذاك ، وسألته : ماذا لو انتهز الإسرائيليون هذه الفرصة ليهاجمونا وقواتنا منهمكة فى معارك العباسية وكوبرى القبة؟ ولن أنسى ما قاله لى :

ولمـــاذا يتعـــبون أنفسهم ؟ لن يفعلوا بنا واحداً من مائة مما نفعله بأنفسنا! وهل كانوا يحلمون بأن تتحول أفرع القوات المسلحة إلى أحـــزاب وجماعات سياسية تقتتل من أجل المناصب والسلطات ، ويقـــف ضباطها خطباء على المنابر يحتجون على أنهم لا نصيب لهم فيما يجرى ، متظاهرين بالغيرة على البلد... الخ ، قد وضعت مؤلفـــات حول ذلك تجعلنا لسنا فى حاجة إلى الإشارة إليها ، فقط نحـــن لا نـــتحدث الآن عـــن الموضـــوع ككل، بل عن أثر هذا الموضوع على المدرسة العسكرية وكفاءة قياداتها . ودار نفس هذا الحديـــث أيام حرب اليمن وقال لى نفس هذا الضابط الجاد : "إننى أتخـــيل أحـــياناً منظرهم وهم يتضاحكون، (يقصد الإسرائيليين) ، ويتعجـــبون مـــن أين جاءهم هذا النعيم ! ما عليهم إلا أن يتفرجوا علينا ونحن نفرش أرضنا بالبساط الأحمر ليسيروا فوقه ! "

جاءت المغامرة الروسية بعد مغامرة القاهر والظافر والناصر والخاســـر، كـــان الاتحاد السوفيتى يفاخر الدنيا هو أيضاً بأن لديه "أكـــبر قوة ضاربة"، فقط هذه كانت رءوساً نووية ... وكان العالم الغربى لا ينام الليل منها ، فقط نحن كنا خارج هذه اللعبة ، والذى لم نكن نعرفه أن القوة العسكرية التقليدية لدى الروس كان متخلفة ولا تصـــلح للقـــتال الضارى هى أيضاً . وقد اعتمد الروس منذ نابليون على "الجنرال البرد" الذى أهلك الفرنسيين ثم الألمان، كما أن جيشهم موبوء هو أيضاً بالسياسة ، صحيح أن الحزب لا يستمد زعمـــاءه من العساكر، ولكن العكس صحيح ، الجيش يستمد قادته مـــن الحـــزب، فى كل وحدة يقبع من يسمونه "قوميسار"، مندوب الحـــزب الـــذى مهمته أن يتأكد من أن الجيش يتدرب على مبادئ الحزب كما أن كل شىء من حكايات الأطفال إلى موسيقى خاتشا دوريان يجب أن يأتى تعبيراً عنها ، نحن أنفسنا كنا قد بدأت أبواقنا تـــتحدث عن "النقاء الثورى" و"الطهارة الثورية" ، ولعلنا نذكر أن الجـــنرال الســـوفيتى الشهير "زوكوف"، بطل معركة برلين، عين

وزيـراً للدفـاع أيام خروشوف، و كان "صديقاً" لأيزنهاور ولهما صور مشتركة فى شوارع برلين بعد استسلام ألمانيا ، ثم ما لبث زوكوف أن أقيل من منصبه ونسب إليه خروشوف أنه "أهمل تعليم الجـيش مبادئ الحزب" . نفس هذه المناظر رأيناها فى جيشنا بعد هـزيمة ١٩٦٧ التى رأى فيها الروس "وصلنا خلاص !" وجاءوا بـالآلاف مـن "الخبراء" ينتشرون فى كل القيادات لغاية مستوى الوحـدة، وظهـرت كفـاءاتهم فى مناسبات عديدة بعد ذلك ، من المعارك الجوية مع الإسرائيليين فى سماء القاهرة ، حيث تساقطت طائراتهم كالذباب ، إلى معاركهم البرية فى أفغانستان ثم دويلات القوقـاز، حيـث كـانوا يبيعون أسلحتهم لأعدائهم من أجل وجبة مشـبعة . لـيس هذا تعريضاً بالروس كشعب ، فهم قوم جادون مكـافحون ، فقط لكل شيء أصوله، مندوب الحزب هذا هو "أهل الثقة" الذين عرفناهم ، مجرد عواطلى "لا منه ولا كفاية شره" كما يقـول التعبير الدارج ، وعندما نأتى إلى التشكيلات العسكرية فإنه يصـبح كارثة . خذ هذه مثلاً، عندما قامت الحركة المباركة (لن أنسى هذه أيضاً، من إبداعات المصريين، كانوا يتندرون بأن تلميذاً فى المدرسة طلب منه أن يصف الثعلب فى جملة، فقال إنه حيوان سريع الحركة... المباركة!) عين فى منصب رئيس الأركان ضابط كبـير كان يشغل منصباً يسمى كبير المعلمين فى الكلية الحربية، وهـو مـا يجعله أستاذاً لأجيال من الضباط، وكان رجلاً عسكرياً مـرموقاً ومحترماً ومحبوباً. كيف يؤدى عمله ويتحمل مسؤولياته وفوقـه ضابط يصغره بأربع رتب رقى مرة واحدة وجعلوه قائداً عاماً، غضب أول الأمر ثم سكت على مضض. وتحته أيضاً قائد لسـلاح الفرسـان، يصغره برتبتين حقاً، ولكنه ... عضو مجلس قـيادة الـثورة؟ تأمل هذا الساندوتش العجيب، أى عسكرية هذه ؟ ومـن نوادر هذا الأخير أنه ــ وهو قائد الفرسان وعضو مجلس قـيادة الثورة ــ استغل نفوذه فى أن يلتحق بكلية أركان الحرب ،

وهـو ما لا يتأتى إلا باجتياز امتحان عسير يتسابق فيه الضباط ، وعـندما يـنجحون فإنهم يدرسون فترة تزيد على سنة ليصبحوا خـبراء حربيين ثم قادة بعد ذلك إذا اختيروا لذلك . ما الذى كان يريده صاحبنا من وراء ذلك ؟ مجرد تعليق "العلامة الحمراء" كما تسـمى . نفس هذا العضو الأمثل فى مجلس الثورة رأيته يتحدث فـى التليفزيون أثناء سنة ١٩٩٩ ، وكان يتفاخر بشىء ، بعد أن تجـاوز الثمانيـن، أتدرى بماذا ؟ بأنه رفض أن يمشى فى جنازة السادات ! نتجاوز كل هذا بسرعة ونصل إلى حرب أكتوبر . كنت أستمع إلى الإذاعة فى اليوم الثالث لتلك الحرب على ما أذكر، كان المـتحدث الصـحفى الأمريكى الشهير آرنو دى بورجراف، كان يقول أنه قام بتغطية صحافية للعديد من المعارك الحربية من قبل ، وأن الحـرب عـادة تتسم بدرجة أو أخرى من الهرج والمرج ، بطبيعتها ، أما هذه ــ وكان يتحدث من موقع لقوة مصرية ــ فقد أذهلته بما تتسم به من الدقة والنظام فى تحركات القوات المصرية وأدائها. لا عجب ، فقد كان القادة من نوع أحمد إسماعيل ومحمد علـى فهمى (رحمهما الله) وحسنى مبارك (أطال الله عمره) كانوا مـن فـئة الجنرال المحترف، وعندما أصبح مبارك نائباً لرئيس الجمهورية ثم رئيساً، كان ذلك بفضل أدائه وفدائيته، وليس نتيجة لخطبة عصماء أو زعامة انتهازية . إن المنصب جاءه يجر أذياله كما قال أبو العتاهية، لم يكن يسعى إليه أو حتى يفكر فيه. الجنرال قـد تكـون له طموحات سياسية، لا بأس بذلك أبداً ، ولكن البدلة والسياسة لا يجتمعان ، ليس هناك جديد فى هذا...

وأرجو أن يغفر لى القارئ أن أتوسع فى ضرب الأمثلة وأنتقل إلـى الجانـب الآخـر من حدودنا ، فهؤلاء هم العسكريون الذين خبرناهم وحاربناهم على أى حال . سنلحظ أن جنرالات إسرائيل الذين أظهروا غاية الإخلاص لبلدهم ، والذين بذلوا غاية الشجاعة والكفـاءة ، كـانوا هـم الذين يريدون إقرار السلام : وايزمان ،

رابين، باراك... أما الثيران من أمثال شارون (جنرال بلطجى) ، والـبغال من أمثال ناتانياهو (وهو ليس عسكرياً كما نعرف) فإنهم يظنون أن الفتونة والمهيصة تغنى عن إعمال الحكمة والفكر ، إنهم لغـرورهم وحماقـتهم كما كان الحال عند فتوات مصر – يظنون أنهم وحدهم فى هذا العالم قتفوتهم حقائقه .

كـان اغتيال رابين فى إسرائيل هو نظير اغتيال السادات فى مصر، وكان فى كلتا الحالتين عملاً فاشلاً ، لأن الفرد هالك على أية حال، أما الأفكار فهى قادرة على البقاء فى عقول الآخرين.

مستقبل القوات المسلحة :

تتميز الحقبة التى نعيشها الآن بما يبدو أنه تطور هائل فى دور القوات المسلحة أو فارق كبير بين دورها طوال ثلاثة أرباع القرن العشرين، والربع الأخير من هذا القرن أو ربما نقول "ذلك القرن"، باعتبار أنه قد انقضى .

شهدنا ــ أو شهد العجائز منا، مثلى أنا وأبناء جيلى ــ حربين عظيمتيـن فى القرن العشرين. كانت الأولى صراعاً بين أباطرة أوربـا، يـأتى من أطماعهم فى بقية أنحاء العالم، كانت أوربا قد قطعـت شـوطاً فى التقدم يجعلها لا ترى فى آسيا وإفريقيا سوى مـوارد ماديـة وبشرية يحق لها أن تستمد منها ما تشاء من أجل إنتاجها ورفاهيتها ، ومن هنا جاءت حرب البوير مثلاً قبل ذلك، ثم وصـل الصـراع على هذه الغنيمة الكبرى إلى أقصاه فى الحرب العالمـية الأولى. ويرى الكثيرون أن الحرب الثانية لم تكن سوى نتـيجة للأولـى ولما أدت إليه من إذلال لواحدة من أعظم وأقوى الأمم فى العالم وهى ألمانيا ، التى أصر شعبها على الانتقام . إن كـان هـذا صحيحاً فبدرجة أو أخرى، لأنه لا يفوتنا أن نلحظ أن ألمانـيا كانـت قـد تحولت من نظام إمبراطورى ــ بعد سقوط